فرويد وماركس .. كلاهمـــا حطم المعنى الكبير لروح الوجـود فوقع كلاهما فى أخطاء جسـيمة .. حطمت نظريته من الاساس . لقد جعل فرويد الجنس سـببا لكل شىء .. ووراء كل الدوافع .. ورفض ماركس العلة الاولى للكون ولكنه عاد فى الظـواهر الاجتماعية ورغم انفه للاشارة الى السبب الواحد .

التفسير الماركسي لت

بقلم : فضيلة الشيخ سليمان المدني

اذا كان فـرويد واتبـاعه لا يعترفون الا بسبب واحد للتفاعل الاجتماعى ، فان ماركس واتباعه لا يفترضون الا سببا واحدا لا للتفاعل الاجتماعى وحسب ولكن لنتـائج هذا التفاعل الاجتماعى ايضا . فالرجلان من ناحية ضيق الافق سيان . انما الخلاف بينهما فى طبيعة هذا السبب .

يذهب فرويد الى ان السبب الحقيقى وراء كل هذا التفاعل الاجتماعى انما هو الغريزة الجنسية فقيام الدول وسقوطها ، وظهور الامم وتلاشـيها وما يصـاحب ذلك من تطورات اجتماعية او ينتج عنه من تغيرات وتعبيرات اجتماعية ليس له من علة يمكن الركون اليها الا دفع الغريزة الجنسـية . فهـذه الغريزة لا تدفع الانسان الى الحروب وحسب ولكنهـا تدفعه الى صنع كل تاريخه بما فيه من خير وشر وحتى النظـريات العـلمية والمخترعات ما كانت لتوجد لولا الدفع الخلاق لهذه الغريزة فالنظرية الماركسية ذاتها هى فى رأى فرويد اثر من آثار الغريزة الجنسية ولو لجا اليه الماركسيون لاستعد لاعطاء تحليل عن ذلك .

تناقض ماركس

لكن ماركس الذى لا يؤمن بالتوجيه للعلة الاولى للتكوين بل يصر على عدم الاعتراف بها يعود فى الظواهر الاجتماعية الى التوحيد فيفترض لها مع تعددها وتشابكها سببا واحدا فكان ذلك تعويض نفسى لجحود الفطرة التى حاربها واصر على تشويه حكمها .

واذا كان ماركس من الوحـدانيين فى علم الاجتماع شانه شان فرويد فانه لا يتفق مع فرويد فيما يفترض من سبب وراء كل تحرك فالعـلة الحقيقية التى تكمن وراء كل تطـور وتغير فى تاريخ الانسـانية هى العـامل الاقتصادى وليس الغريزة الجنسية . فتغير وسائل الانتاج والتوزيع للثروة يقودها حتما وبمـوجب قانون الديالكتيك الهيجلى - الذى يدعى ماركس انه وجده مقلوبا فاوقفه على رجليه - الى تغير فى اشكال كافة الانمـاط والاشـكال الاجتماعية . وبهذا تكون عملية التغيير لصـورة المجتمع - فى رأى ماركس واتباعه - سهلة جدا وبسيطة جدا . فما علينا اذا اردنا ان ننقل المجتمع من طور اجتماعى الى طور اجتمـاعى آخـر الا ان نتدخل فى عمليتى الانتاج والتوزيع ، وعندئذ سيتغير كل شىء سـتتغير كافة العـلاقات الاجتماعية والاديان وشكل الحكم .

ونحن لا نريد فى هـذا المجال ان نتـابع النظرية الماركسية فى كل المجالات وانما تنصب هذه الدراسـة على التفسير الماركسى لعلم اجتماع العائلة .

أطوار الانسانية

يرى الماركسيون ان الانسانية فى اطوارها الاولى لم تعرف (العائلة) بهذا الشكل وانما عرفت نوعا من المشاعية سواء فى النواحى الاقتصـادية او فى العلاقات الجنسـية والاجتماعية . واذا اردنا ان نكون موضوعيين فى نظر الشـيوعيين فان علينـا ان نتابع (مورغان) فى تقسيمه للمراحل التى مرت بها الانسـانية ، تلك المراحل التى سـبق واكتشفها ماركس قبله باربعين سـنة وعلى هداه توصل فى النقاط الرئيسية عند مقارنته البربرية والحضارة الى نفس النتـائج التى توصل اليهـا ماركس . (اصل العائلة ص ٣) والا كان من حقهم ان يستهزئوا بنا كما استهزأوا بمؤسس علم تاريخ العـائلة (باهوفره) (انظـر انجلز : اصل العائلة ص ٨) .

هذه المراحل التى مرت بها البشـرية من عهد الوحشية حتى الحضـارة يجمعها انجلز فى ثلاث مراحل هى الوحشية ثم البربرية ثم طور الحضارة . ثم يعود ويقسـم كل من الطـورين الاولين الى ثلاث مراحـل دنيـا ومتوسطة وعليا .

فالطور الادنى من الوحشية كما يرى ماركس وانجلز تبعا لمورغـان او كما يرى مورغان تبعا لهما - الامر سيان بالنسبة لنا - يمثل طفولة النوع البشـرى حيث لا يزال الناس بعد فى اماكن اقامتهم الاوليه بين الوحوش الكاسرة فى الغابات الاسـتوائية وكانت معيشتهم على الاقل جـزئيا على الاشجار والانجاز الرئيسى لهذه المرحلة هو نشـوء النطق ويسلم انجلز بانه لايستطيع اثبات هذه المرحلة بادلة مبـاشرة ولكن لابد له من افتراضها كحالة انتقالية مادام يعترف بان الانسان نشا من مملكة الحيـوان (انجلز : اصل العائلة ص ٢٥) ..

المهد الاول

والطور المتوسط من الوحشية يبدا باستعمال الغذاء السمكى وباستعمال النار وهذا وذاك

تاريخ الأسرة

مترابطان عند انجلز (لان الغذاء السمكى لا يصبح صالحا تماما للاستهلاك الا بفضل النار · اصل العائلة ص ٢٥) ونحن نعذر انجلز على اتخاذه هذه القرار اذا كان يعتقد بان منطقة الغابات الاستوائية كبلاد الضباب فى درجة الحرارة بحيث لايمكن تجفيف الاسماك على حرارة الشمس · ويرى انجلز انه بفضل هذا الغذاء الجديد امكن الناس ان ينفصلوا عن محل اقامتهم الاول وذلك بالسير مع تيار الانهر وسواحل البحار واستطاعوا حتى فى هذه الحالة من الوحشية ان ينتشروا على القسم الاكبر من وجه الارض · ودليله البليغ كما يصفه على وجود هذه الحالة وجود الادوات غير المصقولة والتى تعود للعصر الحجرى القديم منتشرة فى جميع القارات ·

وهذا الدليل لايكون صالحا الا · اذا سلمنا بمقدمتين الاولى هى ان منطقة الغابات الاستوائية هى المهد الاول للبشرية والثانية بان الانسان نشا من مملكة الحيوان ، اما اذا لم نسلم بذلك فان الدليل لا يكون صالحا للاستدلال على ان انتشار الناس انما حصل بعد معرفتهم للغذاء السمكى وان هذه المعرفة جاءت متاخرة ·

اما الطور الاعلى للوحشية فيبدا عندما عرف الانسان القوس والسهم فقد غدت الطريدة بفضلهما طعاما دائما واصبح الصيد احد فروع العمل العادية وفى هذا العهد بدت العلائم الاولى للسكن فى القرى وظهرت درجة معينة من الملكية للوازم المنزلية الخشبية ، وبعض الانية المتخذة من اليماف الشجر كالسلال المصنوعة من القصب او الالياف اللينة ، ووصل الناس الى درجة معينة من السيطرة على وسائل الانتاج ووسائل العيش (ويظهر هذا كما يقول انجلز عندما نقارن بين الشعوب التى صارت تعرف القوس والسهم ولكنها لم تعرف الفن الفخارى اصل العائلة ص ٢٦) وفى هذا العهد ايضا ساهمت النار والفاس الحجرية فى صنع القوارب من الاشجار واعداد الجذوع المشذبة من اجل بناء المساكن (ونحن نجد جميع هذه المنجزات مثلا عند الهنود الحمر فى شمال غربى امريكا الذين كانوا يعرفون القوس والسهم ولكنهم يجهلون صناعة الفخار

مرحلة البربرية

المرحلة الثانية التى مر بها الناس فى تطورهم نحو الحضارة هى مرحلة البربرية ، وهذا العهد ينقسم ايضا كسابقه الى ثلاثة اطوار ادنى ومتوسط واعلى ·

١ الطور الادنى (يبدا مع ظهور الفن الفخارى) ويحلول هذا الطور يحصل الفرق بين الانسان الذى يعيش فى العالم الشرقى والانسان الغربى بسبب تباين الاحوال الطبيعية فى القارتين الكبيرتين ، فقد وصل الانسان فى هذا الطور الى مرحلة القدرة على تدجين الحيوانات وتربيتها وتربية النباتات وكانت القارة الشرقية اى ما يسمى بالعالم القديم تملك جميع الحيوانات الصالحة للتدجين وجميع النباتات التى يمكن تربيتها باستثناء صنف واحد اما القارة الغربية اى امريكا فكانت تملك من الحيوانات الثديية اللاما فقط ومن الحبوب الزراعية صنفا واحدا هو الذرة (اصل العائلة ص ٢٧ : ص ٢٧)

٢ ـ الطور المتوسط : بسبب الفرق فى الاحوال الطبيعية ـ اخذ سكان كل من نصفى الكرة يتطور بسبيله الخاص · ولم يتجاوز الناس فى النصف الغربى من الكرة الارضية مرحلة تدجين النباتات الصالحة للاكل بواسطة الرى اى حين استيلاء الاوربيين على امريكا ·

فان الهنود الحمر الذين كانوا فى الطور الادنى من البربرية كانوا يعرفون قبيل اكتشافهم تربية الذرة فى المباقل ويقول انجلز اغلب الظن انهم كانوا يعرفون تربية القرع الشمام وكانوا يعيشون فى بيوت خشبية وكان سكان البيرو والمكسيك قد وصلوا الى طور متوسط من البربرية فاستطاعوا تدجين الديوك الهندية واللاما وكانوا يعرفون معالجة المعادن باستثناء الحديد الا ان اكتشاف امريكا قطع عليهم حبل تطورهم المستقل ·

اما فى الشرق فان الطور المتوسط من البربرية يبدا بتدجين الحيوانات البيتية التى تعطى الحليب واللحم وتشكيل قطعان كبيرة من الماشية وكان هذا سبب تميز الاريين والساميين عن بقية البرابرة · وكانت اسماء الحيوانات البيتية مشتركة بين الاوربيين والاسيويين اما النباتات الزراعية فاسماؤها غير مشتركة ·

شعوب الرعاة

وقد ادى تشكيل القطعان الى ظهور حرفة الرعى عند الساميين على ضفاف دجلة والفرات وعند الاريين على ضفاف سيحون وجيحون (ولهذا خيل للاجيال اللاحقة بان شعوب الرعاة نشات فى انحاء لم يكن من الممكن بالفعل ان تكون مهدا البشرية · انجلز العائلة ص ٢٩) ·

والى غذاء الاريين والساميين الوفير من اللحم والالبان وتاثيره على نمو الاطفال يعزى نمو هذين العرقين بمزيد من النجاح ·

٣ ـ الطور الاعلى ـ من البربرية ويبدا بصهر فلز الحديد وينتقل الى الحضارة نتيجة لاختراع الكتابة الحرفية وهذا الطور لم يجر بصورة مستقلة الا فى النصف الشرقى من الكرة الارضية كما قيل اعلاه (والى هذا الدور ينتسب اليونانيون من العهد البطولى والقبائل الايطالية من قبل تاسيس روما بفترة قصيرة وجرمان قيطس والنورمنديون من ارض الفيكنغ · انجلز · ص ٣٠)

وفى هذا الدور ظهر المحراث ذو السكة الحديدية والسكة الحديدية كقوة للجر واصبح الناس يحرثون الحقول وينتجون من المؤن الغذائية كميات غير محدوده عمليا بالنسبة لذلك الزمن هذه هى الاطوار التى مرت بها البشرية منذ طفولتها المدعاة حتى عهد الحضارة كما يصفها انجلز فى اصل العائلة وهو مع ماركس فى الارشيف وغيره من المؤلفات المشتركة · وهى كما ترون لوحة خيالية وليست نتائج علمية ، مجموعة من الدعاوى يعوذها البرهان ، بل يقوم البرهان على نقيض الكثير منها · المهم ان انجلز وماركس يربطان تطور العائلة بهذه المقدمة تطبقا للنظرية المادية وهذا ما يجب ان نوجه انفسنا اليه ونناقشه ·

العائلة

يرى انجلز ان هناك (ثلاثة اشكال رئيسية تناسب بالاجمال المراحل الرئيسية الثلاث من تطور البشرية فالوحشية يناسبها الزواج الجماعى والبربرية يناسبها الزواج الثنائى والحضارة يناسبها احادية الزواج المقرده بالخيانة الزوجية والبغاء · اصل العائلة ص ٩٤ · هذا النص هو خلاصة الصياغة الماركسية لتاريخ نشوء العائلة · ولكى نناقشها يجب علينا ان نبسطها :

البقية في العدد القادم